ـ هذه روايةٌ تافهة.

أجابه كاتبُها يدرأ حرجه

ـ صحيح، أنا لم أنكر ذلك.

عقدَ ذراعيه في وضعٍ دفاعيّ، حاول أن يظهر متماسكاً إلا أنه اختنق بألم لاذع وحرقة كاوية، كان يدرك أنه لا مُبرّرَ لانزعاجه، فهو مُتفقٌ مع الرجل تماماً، يعرف أن روايته تلك تافهةً عديمة القيمة، لكن سماع الكلام بمثل هذا التهكّم كان ما يزال صعباً عليه، ومع ذلك حاول أن يتظاهر بعدم الاكتراث

ـ أوافقك تماماً.. إنها روايةٌ سخيفة غيرُ ناضجة.

ـ لا، هي أكثر من ذلك. مع الأسف...

ـ مع الأسف؟

ـ يؤسفني أن يوجد هذا الهراء على ورق... لم أقرأ شيئاً بمثل هذا السوء والابتذال في حياتي... ربما تكون قويةً لغوياً... لكنها فاسدةُ المَكمن خاويةٌ على عروشها

تخلّى الكاتب عن حياديته الهشّة وسرعان ما فقد أعصابه

ـ هل أحضرتني لتسبّني وتشتمني؟ ما المشكلة؟ لقد وافقتكَ في رأيك.. الرواية سيئة تافهة كتبتُها وأنا مراهق ولم أنشرها قط.. فما مشكلتك؟

ـ مشكلتي؟ ليست هناك مشكلة.. على العكس.. أنا أريدكَ أن تنشرها.. بل أريد أن أتكفّل أنا بنفسي بنشرها لك.. فهل توافق؟

لم يتمالك ضحكتَه

ـ أرجوكَ قل إنكَ تمزح! ألم تقل لتوّك أنك تكرهها؟

ـ ما أزال عند رأيي.. لا أريد هذا الغثاء لنفسي يا عزيزي.. إنما يثيرني أن أتكفّل بنشرها لك فقط... فما رأيك؟

نظرَ إليه في ريبة، يثيره؟ ومن أجل ماذا يثيرهُ النشر؟ الربح؟ لكن الرواية سيئة، لا يمكن أن يكون ذلك هو السبب، كان في الرجلِ شيئاً ما، يخطف بصرَه ويُربكه منذ البداية، فصار يلوم نفسه أنه لم يستجب لحدسه ذاك، لإحساسه القوي أنّ ثمةَ شيءٌ مريب في ذلك الرجل، لكنه

استطاع أخيراً أن يُسيطر على ريبته، وماذا قد يفعل به الرجل الغريب مهما بلغ من الغرابة؟ هو أقوى منه، يستطيع أن يغلبه جسدياً دون جهد، وسلاحه تحت سترته الآن، كما هي الحال دائماً، لا يمكن لأحدٍ أن يؤذيه، إنه حريصٌ على ذلك، ربما حريصٌ بشكلٍ يدعو للاستغراب، وبعد أن بدأ يُقنِع نفسه بذلك حاول التفكير بتعقّل، هرباً من الصوت الذي في داخله، والذي يؤكّد له أن مصيبةً – لا تبالي بقوته – توشك أَن تقع له

ـ أعتقد أن التفسير الوحيد هو أن هذه مزحةٌ ثقيلة.. أليس كذلك؟ هل أنتَ صديقٌ لهاشم؟

لم ينتظر رداً، حتى هو لم يكن يصدق هذا الإدعاء، وكان يعرف تماماً أن الرجل جادٌ كلّ الجدّ، لا يبدو وجهه كوجه رجلٍ يستطيع أن يمزح حتى لو شاء، ولكن ماذا قد يكون المغزى من كلامه لو لم يكن المزاح؟ ولماذا يُحمّله الرجلُ بمثل هذه النظرات الثقيلة؟ كأنها نظراتٌ تعنيه هو بذاته، تُصيبه لا تخطأه، شعر كأن الرجلَ يظنُّ أنه تربطهما علاقةٌ شخصيةٌ ما، ولكنه واهمٌ لو ظّن ذلك، يعرف هو أنه لم يرَ هذا الرجل المعتوهَ في حياته، كان ليتذكره، بهُزاله المُلفِت، وطوله المارِق، ولأن ملامحه كانت مميزة، بدا في العشرينات من عمره، لكن ملامحه كانت كئيبةً ساخطة، كملامح شيخٍ كافر ينتظر الموت، ويخافه برغم ما يُظهر من جَلَد، حتى صوتُه كان خابياً مكدوداً ميتاً، قال له من شفتيه الشاحبتيْن بخمولٍ وضحكةٍ جافّة

ـ لو كنتُ أعرف أنك ستُعجب بي إلى هذه الدرجة لأمرتُ أحداً أن يأتيك بصورتي...

ـ آ..أنا آسف.. لم أقصد شيئاً.

أنزل الكاتب عينيه أرضاً، ثم أردف خافضَ البصرِ محاولاً وضع يده على المشكلة

ـ أنتَ تمقتُ روايتي كل هذا المقت... ولكنك رغم ذلك تطلب أن تنشرها لي؟

ـ أنا لا أطلب...

قال الرجل ذلك وهو يضع إحدى ساقيه الطويلتين فوق الأخرى، ثم أردف بمزيد من العجرفة

ـ أنا لا أطلب.. أنا أتوسّل! نعم.. لا تنظر إليّ هكذا.. إنني أتوسل إليك أن توافق...

ـ الآن أنا فعلاً لا أفهم شيئاً...

ـ لا بأس، أقدّر أنك لا تفهم.. وسأشرح لك فيما بعد.. لكن أجبني أولاً.. هل توافق على نشر الرواية؟

ـ أنا آسف.. لا أوافق طبعاً.. لو أردتُ نشرَها لما انتظرتُك! لو أردتُ نشرها لفعلتُ ذلك منذ خمس عشرة سنة!

ـ ولماذا لا توافق على نشرها؟

أجابه الكاتب بعد برهةٍ قصيرة

ـ عندما كنتُ مراهقاً لم أكن أدركُ أن الأدب رسالة.. أصبحتُ الآن أنا أؤمنُ بأنه وسيلةٌ قوية للإضافةِ إلى الوعي الجمعيّ.. أما هذه الرواية فهي هراء.. لن أنشر هذا الهراء على أحد.. أنا آسف.

ـ حتى لو عرضتُ عليك عشرة مليون؟ أو عشرين مليون جنيه .. هل توافق؟

نهضَ الكاتب خائباً يحاول الاستيعاب

ـ ما هذا؟ برنامج كاميرا خفيّة؟ يا لمضيعة الوقت!

ـ أرجوكَ اهدأ.. أنا بليونير.. هذا المبلغ لا شيءَ عندي.. والمال هنا في هذه الغرفة على يمينك.. إذهب لتفقده إذا شئت.

ـ أوه، أنتَ بليونير؟! لذلك تقيم في هذه الخرابة؟!

ـ نعم، إذهب لتفقّد الغرفة ستجد المبلغ الذي عرضتُه عليك كاملاً.

ـ فلنسلّم أنك بليونير مع أنني أستبعد ذلك! ماذا قد تستفيدُ أنتَ من هذا العرض الغريب؟ ما هو المميّز جداً في هذه الرواية؟!

ـ لا شيء مميزٌ فيها.. إنها رواية قذرة.. أعتقد أننا غطّينا هذه النقطة من قبل

هاجمه الكاتب بوثبةٍ جعلت الآخرَ يتمايل مَيْلاً شديداً، لا يناسب ضآلة الهجمة، بدا أقرب إلى أنه يترنّح من أثر شيء عبث بدماغه، ضحك ضحكةً قصيرة، فأثار ذلك غضب غريمه الذي بدأ يتصبّب عرقاً

ـ ما الذي يجري؟

ـ أرجوك اهدأ

اعتدل الرجل في وقفته بصعوبة وهو يغالب ضحكه، ثم وضع يده على كتف صاحبه

ـ هلّا جلست؟ ستفهم كل شيء خلال لحظات...

ـ لن أهدأ ولن أجلس ولا أريد أن أفهم شيئاً.

ـ كما تريد.. لا تجلس ولا تهدأ.. ولكن هلّا تَبِعتَني إذا سمحتْ؟

رافقه الكاتب متثاقلاً – مدفوعاً بالفضول – إلى الغرفة على اليمين، أضاءَ الرجلُ مصباحها فظهرت كومةٌ من النقود تكاد أن تكون بحجم سريرٍ صغير، تقدّم الكاتب ليتحقّق من الورق فوجده حقيقياً، عند ذلك بدأ يرتاب أنه هو الذي يحلم، لكن الرجل قاطع خيالاته

ـ ما رأيك؟ هل توافق على عرضي؟

بُهتِ الكاتب وهو ينظر إلى المال المرميّ أرضاً، ربما يُعتبَر من الأثرياء، ومع ذلكَ فهو في حاجةٍ ماسّةٍ إلى مثل هذا المبلغ الضخم، لأغراضٍ أخرى، لكنه صمد

ـ لا أوافق.. أنا آسف.

استدار الكاتب يريد أن ينصرف مهرولاً، فقد أصبح يرى أن الرجلَ سفيهٌ مريب، كان يقف له عند باب الغرفة الوحيد منتشيَاً بدون سببٍ واضح، وقفته المائلة، ونظرته الفارغة، دفعتا بالكاتب إلى العجب والاستنكار، إنه مجنون، لا ريب، استجمع هو شجاعته ومضى تجاهه، ابتسم الآخر له نصفَ ابتسامة، ومدّ ذراعه الطويلَ الهزيل ليمنعه عن الخروج قائلاً

ـ عندي عرضٌ غيره

نظر إليه وقد أصبح فيه خوفٌ غريب من الموقف برمّته، أكّد له وهو يحاول أن يتجاوزه

ـ لا أوافق على أيّ عرض حتى قبل أن أعرف ما هو

ـ إسمع أرجوك .....أنا... أنا في حاجةٍ إلى أن أنشر هذه الرواية.. أتفهم؟ حاجتي إلى ذلك ماسّةٌ خانقةٌ تكاد أن تصيبني بالجنون

لاحظ الكاتب أن يد الرجل كانت ترتجفُ وهو يعبّر عن رغبته

ـ أرجوك!

ازدادتْ رعشة الرجل وهو يتوسّل، فأصيب الكاتب بريبةٍ شديدة وبدأ يدفعه بعنف يريد أن يهرب، لكن الرجل تابع كلامه وقد أصبح يلهث تقريباً

ـ إنتظر.. أرجوك.. ما رأيكَ أن نعدّل العرض قليلاً؟ ما رأيك أن تنشر الرواية باسمٍ مستعار؟ هل توافق على هذا؟ أرجوك .. إني أتوسّل إليك أن توافق...

***

ـ إذا لم تُعطني المفتاح فسوفَ أقتلها!

نظرَ الكاتبُ إلى المعتوه المضّجع على الأرضية القذرة، شِبهَ نائم، تمنى لو أنه يتحرّك ولو قليلاً، لكنه لم يستجب لتهديده، أحكم الكاتب قبضتَه القاسية على المرأةِ الأربعينية، التي حاولتْ بدورها التملّص منه، لكنها لم تستطع أن تقاوم قوّته الجسدية مطلقاً، لقد قمع ثورتها عليه بسهولة، ولما شعر بضعفها الشديد في مقابل عضلات جسده، كادَ شخصُه الذي يعرفه أن يتحطّم، لم يكن يتوقع أن رجلاً شريفاً مثله قد يرفع المسدس على امرأة، مهما كان السبب، نظرَ إلى المجنون في غلٍّ وصاح به

ـ سأقتلها أمامك! ألا تفهم؟!

أغمض المعنيّ عينيه كأنه سينام، لكنه بعد ذلك عاد ففتحهما ببطء، زاغتْ حدقتاه لبضع ثوانٍ، وصار البياض طاغياً على عينيه كأنه سيعمَى، قال بصوتٍ ناعس لا يكاد يُسمَع لشدةِ نعومته وانخفاضه

ـ ماذا تنتظر؟ هيا.. إفعل بها ما يحلو لك.

مسح الكاتب عرقه بساعده، وبيده الأخرى ثبّتَ المسدّسَ على رقبة المرأة، ثم قال وهو يضغط على أسنانه

ـ أرجوك لا تجبرني على هذه الأفعال الدنيئة!! لا تجبرني على تهديدك بما هو أشنع من قتلها!

سخر منه الرجل بنصف ابتسامة، ثم أجابه بصوتٍ فيه نعاسٌ يزداد

ـ عزيزي.. كنتُ أعرف أنك ستهدّد بهذا التهديد تحديداً.. لذلك اختصرتُ عليكَ الطريق فلم أقل اقتلها.. ولكن قلتُ إفعلْ بها ما يحلو لك..... هيا.. ماذا تنتظر؟ تفضّل يا عزيزي هي تحت رحمتك.. أنا أنتظر.. أو يمكن أن أخرج إذا أردتَ وأترك لكما الغرفة؟

ـ ما يحلو لي؟!.... ما....

رمى الكاتبُ المرأةَ المُقيّدةَ أرضاً، ثم رفع الرجلَ الهزيلَ من ثيابه فأَنهَضه رغماً عنه، وبسبب طوله الشديد فقد تدلّى رأسه على صدره، صاح الكاتب في وجهه الخالي من التعبير

ـ إن هذا لا يحلو لي! لا شيءَ من هذا.. "يحلو" لي!

ضحك الرجل وقال متهكّماً ينظرُ إليه من الأعلى

ـ فعلاً؟! هل أنتَ واثق؟

صفَعه الكاتب بالحائط خلفه

ـ هل تظنّ أنك تعرفني حقّ المعرفة؟

أقحم الكاتب يده في جيب غريمه ليستخرج منه محفظتَه، فتحها ثم أخرج منها ورقةً مطويّة، خبراً مُقتصّاً من جريدةٍ قديمة، عنوانه

"طفلٌ يقتلُ أباه بسبعين طعنة و يمثّل بجثّته بعد موته"

رفع الكاتبُ الخبرَ في وجهِ المجنون، ثم صاح غاضباً يكاد أن يبطش به

ـ أنا أيضاً أعرفك! أنتَ أيضاً لستَ بريئاً! ... فهل بسبب غلطةٍ واحدة تجعلنـ

ـ غلطةٍ واحدة؟!

انطفأ وجه الرجل ومال جسده إلى اليسار قليلاً، لم يستغرب الكاتب مَيْله المفاجىء فقد أصبح يعتاد حركاته المضطربة، إنما أدهشه وجه الرجل الذي تخشّب وبهت لونه، في لحظة، خلا وجهه من كل أثرٍ للعاطفة، وحدّق في الكاتب ثابتاً بارداً كأنه أصبح لا يمتلك تجاهه أي عاطفةٍ إنسانية، شعر الكاتب بأنه خواءٌ أو عدم، لكنه تمالك نفسه أخيراً وصاح بصوتٍ أضعف من ذي قبل

ـ أين مفتاح غرفة زوجتي؟!

استمرّ الرجل ينظر خلاله كما يُنظَر إلى البَغيّ عديمة الشرف، ثم اعتدل عن ميْله أخيراً، استند إلى الحائط، والتف لينصرف دون إجابة. عندما تحرّر الكاتب من نظرته استطاع أن يجذبه من ثيابه

ـ أرجوك! ما ذنبُ زوجتي المسجونة؟!! لا ذنب لها في شيء! أرجوك أخبرني أين المفتاح؟

أجابه الرجل بصوتٍ ناعم لا يكاد يُسمع

ـ هل تسأل عن ذنبها لأنك تريد فعلاً أن تعرف؟

ـ ماذا؟!

التفتّ الرجل، وكانت ملامحه قد تخفّفت من ثقلها السابق

ـ ألم تسمعني؟

ـ لا طاقة لي بهذا الهراء! أعطني المفتاح!

اقترب الرجل منه حتى صار ملاصقاً له، كان فارق الطول كبيراً بحيث استطاع الرجل أن يضع يده الشاحبة على رأس الكاتب كأنه ابنه الصغير

ـ هل تريدُ فعلاً أن تعرف ذنبها؟ لن تعجبك الإجابة... أنتَ تعرف أني لن أسجنها هنا دون تهمة.. أليس كذلك؟ أنتَ أول العارفين بهذا... هاااا... عيناك تختلجان! أنت تصدقني!.... ها؟ ألا تريد أن تعرف ماذا فعلتْ زوجتُك؟

ـ ولا كلمةٍ أخرى! أخبرني أين مفتاح غرفتها، وإلا...

ـ وإلا ماذا؟ ها؟ ماذا ستفعل؟

تراجع إلى الوراء متمايلاً، ثم وضع أصابعه الهزيلة الشاحبة قرب رأسه، أشار بإصبعه كأنه مسدسٌ يشحذه، ثم قال يتحدّى غريمه بصوته الناعس الأجوف

ـ وإلا ماذا؟ هل ستقتلني بهذا المسدس الخَطِر الرهيب؟ ها؟ هيا اقتلني... ماذا تنتظر؟

***

الخميس، الثامن من يوليو، 1996

أخطأت، كان يجب أن أنام ولو لساعة، الآن أنا بسبب السهر مؤرّقٌ ومضطرب، أبدو أكثر خبلاً، وهذا ليس في صالحي، سيجعلني ذلك أبدو مذنباً، ولكن ما فائدة النوم؟ لا شيء، لا يمكن لبعض النوم أن يجعلني أكثر استقامة، لا أمل في ذلك، أنا منذ رحيل أمي، محطّم، مبعثر، عقلي أصابه خللٌ ما، الزمن مختلّ، الشخوص تُختلق وتختفي في العدم، ربما لأنني وحيدٌ جداً، ووحدتي هذه تصيبني بالريبة أكثر فأكثر، ربما من أجل ذلك عدت أكتب، علّمتنا أمي أن نكتب كل يوم، أي شيء، والآن أنا أحتاج إلى التدوين حاجةً ماسّة، أحتاج أن أقرأ ما يحدث لي، لكي أحكم بنفسي، هل فقدتُ عقلي بالفعل أم لا، إن ذلك الشعور يخيفني، أصبحتُ خائفاً طوال الوقت، والآن أكثر من كل وقت، ولذلك خذلتني كرامتي وتوسّلتُ إليه

ـ أبي؟ إلى أين أنتَ ذاهب؟ ألن تبقى معي أثناء التحقيق؟!

لم تتحرّك في وجهه عضلةٌ واحدة، لكن نظرة استهزاءٍ عَبَرتني بلا مشقة منه، دون أن يضطر حتى أن ينظر تجاهي تماماً، هربتُ من سخريته بالتحديق صوبَ الأرض

ـ أنا آسف..

لماذا اعتذرت؟ عمّ اعتذرت؟ لماذا أنا بهذا الضعف أمامه؟ رمقني في سخريةٍ من الاعتذار الذي لم يكن له سبب، بمثل هذه النظرة، وبما هو فوقها، أعرف أنه هو من قتل أمي، أستطيع أن أتخيّله في صورته الساخرة هذه، وهو يلهو بالسكّين، يديرها بأصابعه الغليظة، ثم يسحب السكين على جلدها، ثم يطعنها مرةً بعدَ مرةٍ بعد مرة...

مؤخراً أصبحتُ أشعرُ أنه سوف يأتي يومٌ وأقتله بنفسي، لكنني مع ذلك، الآن في هذه اللحظة، عاجزٌ حتى عن النظر تجاهه مباشرةً، كأنه شمسٌ حارقةٌ للأبصار، قبل أن يخرج من الباب استلم معطفه من مساعدته ليلى، ثم همس مهدداً دون أن يلتفت إليّ

ـ إياك أن تفتح فمك بكلمة عنه، أتفهم؟

أومأتُ برأسي تقديماً لفروض الطاعة، برغم أنه لا يراني، بعد ذلك اقترب الضابطان وبدآ بالتحقيق معي في مكتب أبي، قال أطولهما بعد أن جلس في هدوء

ـ أين كنتَ ليلة الثلاثاء من منتصف الليل إلى الثالثة فجراً؟

ـ كنتُ نائماً.. في غرفتي..

ـ هل هناك أحدٌ يمكن أن يؤكد ذلك؟

ـ لم أتعوّد أن أنام في وجود شهود...

ابتسم الضابط الأول ابتسامةً لم أفهم مغزاها، أما الثاني فقد بدأ يتحدث في عصبيةٍ لا داعي لها

ـ إن غرفتك هي أقرب الغرف لغرفة أمك التي قُتلت فيها!!

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم أنك مريـ

قاطعه زميله وهو يعَضُّ القلم في فمه

ـ عصام... إهدأ يا عزيزي.

انصاع له زميله وسكت برغم أن وجهه كان يزداد احمراراً وغلظة، لكن الضابط الآخر تجاهله واستمرّ يعضُّ القلم في فمه، وكان تصرّفه ذاك يُصيبني بالغثيان لكنني حاولتُ السيطرة على اشمئزازي، خاطبني دون أن ينزع القلم

ـ عندما ماتت أمك... كانت هناك موسيقى في غرفتها... هل تعرف هذا؟

ارتعش جسدي وشعرتُ بشعر ذراعيّ ينتصب، تابع هو بالبرود نفسه

ـ كان هناك معزوفةٌ تنبعث من الفونوغراف.. هل تعرف أيّ معزوفةٍ هي؟

ـ لا...

ابتسم الضابط ذات الابتسامة التي لا أفهم مغزاها، ثم نزع القلم من فمه، فظهر اللعاب وآثار الأسنان على الغطاء الذي كان يعضّه، وضعت يدي على فمي حتى أبلع القيء، ثم أجبرتُ نفسي بصعوبة على النظر بعيداً عن القلم

ـ كانت تنبعث من الفونوغراف معزوفةٌ كلاسيكية لفيفالدي.. عازف الكمان الشهير.. والأمر الغريب.. أننا وجدنا آلة كمانٍ في غرفتك.

ـ وما هو الغريب في ذلك؟

حمدتُ الله أني استطعتُ أن أتكلم دون أن أتلعثم، والحقيقة أن كلامه جعلني أرتجف من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ، تمنيتُ ألّا يكون قد لاحظ ذلك، اختلستُ النظر إليه فوجدّتُه يعضّ قلمه تاركاً انفراجةً ساخرةً بين شفتيه، ثم همس كأنه يُكلّم نفسه

ـ ما هو الغريب في ذلك؟

حكّ ذقنه النابتة ثم هزّ كتفيْه مردفاً

ـ أتريدُ الحقّ؟.. أنا لا أعرف.. أنا فعلاً لا أعرف.. أنتَ تعزُف الكمان.. وهي تُقتَل وهي تستمع إلى الكمان.. يبدو كأن هناك ارتباطاً سحرياً بين الأمرين.. ولكن لأكون صادقاً.. لا أعرف ماذا يمكن أن يكون الرابط تحديداً.

كُنتُ أدافع الخرافات والأخيلة عن رأسي، بينما أردف هو

ـ وجدناها في سريرها.. الفونوغراف على منضدةٍ بعيدة ينطلق بالموسيقى في منتصف الليل.. وهي على السرير مشقوقة البطن.. والأمر الملفت.. أنها لم تكن تضع نظارتها السوداء! رغم أنها كانت دائماً دائماً ما ترتديها.. هل تعرف لماذا؟

ـ لأنها شُفيت من العمى..

ضحك، لا أعرف لماذا، ثم أردف

ـ صحيح.. لقد شُفيت من العمى تماماً قبل أن تُقتل.. بأيام معدودات.. ألا ترى كم تُعقّد هذه التفصيلة الصغيرة كلَّ شيء؟!!

ـ لا أفهم...

ـ سأشرح لك يا صغير..

نهض الضابط وجذب معطفه إليه، توجّه نحو الفنوغراف الموجود في مكتب أبي، وتظاهر كأنه يضع فيه أسطوانة موسيقى، ثم أغمض عينيه، ومضى يرمي بنفسه على الأريكة، قال وهو ما يزال مُغمَض العينين

ـ لقد وضعتُ مقطوعة أحبها.. وأنا الآن أسترخي.. المشكلة أن المقطوعة التي أحبها لفيفالدي.. وما أدراك من هو.. والمشكلة الأكبر إن أول كلمات المعزوفة "وقفت الأم بجوار الصليب تبكي.. تبكي على ابنها المصلوب هناك"

كنتُ أسمع هذه الترجمة لأول مرة، وشعرتُ بأن عقلي ينزف، إنه شعورٌ لا أدري كيف أصفه، أدري كم أن الكلمات مبتذلة، ولكنها تناسب أمي، شعرتُ بأني أراها أمامي، تقطرُ دماً، لكنها لم تكن تبكي، ولم تكن تقف، كانت تجلس عند الصليب، تضع ساقاً فوق الأخرى، وتسند رأسها إلى يدها، يتمايل رأسها مع الموسيقى، لم أكن أرى عينيها بسبب نظارتها السوداء، لكن أستطيع بسهولة أن أتأكّد أنها لم تكن تبكي، لأنها كانت تبتسم، تكاد أن تضحك بعصبيتها الأثيرة أمام الصليب، بين يدي الطفل المصلوب المتدلّي منه.

وضع الضابط يده على عينيه كأنه مُصاب بالصداع ثم أكمل ترجمته بلا عاطفةٍ تُذكر

ـ "وخلال هذه الرّوح المنتحبة.. الملتاعة.. الشَّجيَّة.. يمرُّ السيف..."

أشعُر بالغثيان، أمي مولعةٌ بالدراما، أليس كذلك؟ لم تخبرني يوماً أن هذه هي ترجمة الكلمات، ولكنني أتفهّم تماماً الآن لماذا كانت تحب هذه المعزوفة، إنها تحب هذا النوع من الأشياء، تحب أن يكون ابنها – ابنها هي – مصلوباً، مصلوباً يتدلّى ميتاً، ثم بعد ذلك ستصاب بنوبةٍ عصبية، وتنهار باكيةً منتحبة، لو كان حيّاً لخافت من حبه أو غضبه، ستكرهه وتنفرُ منه، أما الآن وهو ميت، فهو الحبيب الذي تنتحبُ من أجله، ولأجله تُمِرّ السيف خلال روحها الملتاعة! يا للغثيان!

ـ وأنا امرأةٌ مصابةٌ بالاكتئاب العضويّ.. أنا امرأةٌ مجنونة وانتحارية.. إن هذه الأغنية تصيبني بالهلع..

فجأة، بلا مقدمات، وبلا أسباب، غمرتني عاطفةٌ قوية، إني جاحد، إني أنسى دائماً، أن كل هذا عضوي، نفسي، خارجٌ عن إرادتها، ولا أزال أتذكر زمناً كانت تحتاجني فيه، فتقول على استحياء، بلا دراما، بلا التواء، (أنا أعرف أنك مشغولٌ مع أصحابك كثيراً، لكن لو أمكن أن تبقى معي قليلاً، سأكون شاكرة) ثم تستدركُ وتؤكد بشدة (ولكن لن أحزن إذا ذهبت) وكنتُ أذهب، كنتُ دائماً أذهب...

فتح عينيه وانتصب فجأةً يهرول نحوي، نزل على ركبته أمامي، فأصبحتُ بذلك أواجهه تماماً بلا مسافةٍ تفصلنا تقريباً

ـ هل فهمتَ ما أعنيه؟

تفحصني حيث كنتُ أرتجف، وأطال النظر خلال عينيّ، ثم ابتسم نفس الابتسامة التي لا أفهم مغزاها، وأخيراً عاد إلى كرسيه، أمسك بقلمه يُعيده في فمه ليعضه

ـ ما أقصده هو.. من السهل أن تتخيل أن هذه المرأة المجنونة قد أصيبت بالهلع وفعلت ذلك بنفسها.. كنتُ سأغلق القضية بمنتهى البساطة.. لكن أتدري أين العطب؟

ـ العطب؟

ـ يعني الخلل أو المشكلة.. المشكلة هي في مسألة العمى.. لا يمكن أن تنتحر من شُفيت من العمى بمعجزة.. بعد كل هذه السنوات.. تستردّ بصرها بمعجزةٍ ما! ثم تنتحر؟!! لا.. هذا مستحيل.. إلا إذا كانت قد رأت شيئاً آ... يدفعها إلى الانتحار..... ولكن ها أنا أنظر إليك.. وأنتَ ولدٌ حسنُ المظهر.. وزوجها وسيم كالممثلين.. هي جميلة وجذابة جداً.. إعذرني على وقاحتي.. القصر جميل.. كل ما يقع عليه بصرها تقرّ به عينها.. فما هي المشكلة؟ ماذا رأت هذه المرأة؟ هل فهمتَ حيرتي؟ لماذا تقتل نفسها رغم معجزة الشفاء من العمى؟ أصبحت ترى كل هذا الجمال حولها بعد سنواتٍ من الظلمة.. ثم تنتحر؟! مستحيل!

ـ ...

ـ هل رأت شيئاً لم يكن ينبغي لها أن تراه.. ولهذا السبب قُتلت؟!.... لقد استولت هذه الفكرة على عقلي.. ثم رأيتُ الكمان في غرفتك.. أي نفس الآلة التي كانت تُعزَف بينما قُتلت أمك.. وشعرتُ أن هناك حلقةً مفقودة.

سادَ بعد ذلك صمتٌ طويل، ولاحظتُ أن عصام زميله يتشفّى فيّ، وفي ارتجافي أمام زميله، فأغضبني ذلك وزاد من رعشتي، نهض عصام هذا عن كرسيه واقترب كثيراً مني حتى أنه مال عليّ يسأل في اتّهام واضح

ـ لماذا أنتَ متوتر؟ ها؟ لماذا يداك ترتعشان؟ لأنك خائف.. ها؟ أليس كذلك؟ هل فعلتَ شيئاً يستحق هذا الرعب؟ ها؟ لماذا ترتعش يداك هكذا؟! لماذا؟!!

ـ بسبب القهوة.. أيها الجاهل

قلتُ ذلك واثقاً أنه لن يمسني، لأنه يعرف من يكون أبي، وماذا يمكن أن يفعل به، لكن الرجل كاد أن يصفعني فعلاً، لولا تدخّل زميله الدرامي

ـ عصام! لا لا يا صديقي.. توقف

همس له بشيءٍ ما، فانصرف عصام على إثره يزفر ويضرب الأرض كالأطفال، وخرج الثاني وراءه، ثم بدآ يتحدثان وراء الباب الموارب، كنتُ أسمعهما بشيءٍ من الوضوح، فسمعي فيه قوة، كما كانت تمتدحني أمي

ـ عصعوص، لا داعي لهذه الجلبة! أتظن فعلاً أن صبياً قد يشقُّ بطن أمه بمثل هذه الوحشية؟! إنني أمتحن صبره فقط.. أما أنتَ فتشاهد أفلام الرعب بمعدِّل مريب.. هذا غيرُ صحيٍّ يا صديقي

ـ أنا أتحدث من وجهة نظر علمية! الولد مريض نفسياً.. ألا ترى هذا؟!

ـ أنتَ غيرُ مؤهلٍ لتُدْلِي بهذا التشخيص وبمثل هذه الثقة.. هل أنت طبيب نفسي؟

ـ لا تتذاكى! أنتَ تفهم ما أعنيه.. إنه ولدٌ غيرُ طبيعي! أنظر مثلاً إلى أزرار قميصه تلك التي أغلقها حتى نهاية رقبته! أنتَ غرٌّ وليست لديكَ خبرةٌ بالناس لترى ما أرى أنا فيه!

ـ وما هو العلمي في أزرار القميص يا عُصعُص؟! أرجوك اهدأ ولا شأن لكَ به ما دمت ترفض العقل بهذه الطريقة وتجني عليه بدون دليل.

هذه مهزلة! سمعي ليس قوياً إلى هذه الدرجة يا أمي، إنهما فقط يتعمّدان أن يُسمعاني، هل يُفترض الآن أن أكره عصام؟ وأن أقع في غرام زميله الذي يدافع عني "فجأة" بكل هذه الجلبة والحدة والشغف؟

دخل الضابط الهُمام وحده، هل انصرف عصام إذن؟ هذا الضابط مغفّل! هل يعتقد أنه هكذا قد كسب ثقتي بهذه المسرحية السخيفة؟! مدّ يده في ودٍّ زائف

ـ أعتذر عنه.. لنبدأ من جديد.. أنا مهاب.. وأنت، ما اسمك؟

ـ فعلاً؟!

ضحك الضابط وحكّ رأسه الذي خالطه الشيب برغم صغر سنه، له عينان كالجمر الملتهب، تتنافران وهيئته الباردة، فهو يبدو كمن استيقظ لتوه، جفناه يسقطان فوق عينيه، ثيابه تحوم حوله ضائعة، حتى أنه يضطر كل بضع دقائق أن يُذكر معطفه المهلهل بأن يعود إلى جسده، كان يتفحّصني بكثيرٍ من الوقاحة وقليلٍ من السخرية

ـ دعك من رعشة اليديْن.. لكن السؤال الحقيقي.. ما الذي قد يدفع بصبيٍ صغيرٍ مثلك إلى شرب القهوة؟ لماذا تريد أن تسهر؟ هذه ليست فترة اختبارات فليس السبب حتماً هو السهر من أجل الدراسة.. فلماذا تشربها بكل هذا القدر؟

ـ ...

ـ ربما لأنك لا تريد أن تنام.. لأنك تحلم بالكوابيس.. أليس كذلك؟

ـ ...

لا بأس، من الطبيعي أن أحلم بالكوابيس بعد وفاة أمي، هذا لا يدلّه على شيء، وليس سبباً لأُتّهم بشيء، لكن لماذا ينظر إليّ بهذه الطريقة؟! تفحصّني أكثر، أعتقد أنه يؤمن تماماً بكلام صديقه عني، إذْ أنَّ نظرته تعلّقت طويلاً بأزرار قميصي المغلقةِ حتى آخر زرّ، وطال نظره إلى رقبتي، رغماً عني، بدأتُ أشعر بياقة القميص تخنقني، وبدأتُ أقاوم الحاجة الملحّة إلى فتح الأزرار، إذا استسلمتُ وفتحتُ القميص .. كيف سيبدو هذا الانصياعُ له؟ هل ينظر إليّ بهذه الطريقة متعمداً؟ هل هذا اختبار نفسي؟ يجب أن أقاومه، لن أفتح القميص، رأيتُ يدي تتحرك إلى الياقة وتداعبها رغماً عني، ورأيتُ أصابعي وهي ترتعش، ما كان يجب أن أفعل ذلك، وما كان يجب أن أنظر إلى الضابط بعد تردّدي هذا، ولكنني فعلت، إنه يضحك في سرّه مني، ولكنه تمالك نفسه وحاول الحديث بحيادية

ـ يا صغيري أنا أطلب منك أن تتعاون معي لأنني هنا لأحقق لك ما تريد

ـ ما أريد؟

ـ أن نلقي القبض على قاتل أمك... ألا تريد أن تعرف من يكون؟

لا، أنا أعرف من يكون، إنه أبي! لكن، بدلاً عن البوح بذلك الإدعاء، قلت متظاهراً بما أستطيع من الحيرة

ـ نعم.. أريد أن أعرف..

لم يُصدقّني، ولكنه بدأ تحقيقه بجديةٍ هذه المرة

ـ كم عمرك يا صغير؟

ـ أنا في الرابعة عشرة.

ـ هل نجحت في المدرسة العام الماضي؟

ـ نعم.

ـ هل لديك أصدقاء؟

ـ نعم.

ـ هل قتلت أمك؟

ـ لا.

ـ هل تحب والدك؟

أجفلني السؤال وكان ذلك واضحاً على وجهي، فلا سبيل لإنكار ما أصابني من الجزع

ـ ماذا تريد من سؤالَك هذا؟

ـ ماذا أريد؟! .... لا شيء.. لا شيء أبداً..

أوقع في عينيّ نظرةً طويلةً ذات مغزىً ساخر، كان يكتم الضحك وهو ينظر إلى رقبتي، نعم، هذا واضح، إنه يكتم الضحك لأنني لا أستطيع أن أتوقف عن تحسّس القميص المغلق، ولكن ماذا يعنيني إن يسخر مني؟ أو من هيئتي، فليسخر ما يشاء، المهم أن أخرج من هذه التحقيقات دون أن أنطق بكلمة واحدة، لن أنظر في عينيه، لن أنظر مطلقاً .. ولكنه بذلك قد يظن أنني أهرب من نظراته؟ لا، يجب أن أقتحم عينيه اقتحاماً، ويجب أيضاً أن تكون نظراتي حادّة، ويجب أن أنسى، أنه ــ لسببٍ ما ــ ليس لعينيّ وزن، سوف أنسى، والطاقة الكامنة في داخلي، هي ستكفي تماماً لردع سخريته.

ـ هل يمكن تعتقد أن أباك هو من قتلها؟

إذا اعترفتُ له بذلك، ثم قتلتُ أبي، سوف يعرفون أنني أنا القاتل، لا أقول أنني سأقتله، ولكن لو ــ لو ــ حدث ذلك، سوف يتذكرون هذا التحقيق، لقد كان يعرف أن أباه قتل أمه، ولذلك قتله انتقاماً لها.

هل يمكن أن هذا الضابط ذكي إلى هذا الحد؟ هل يتوقع أني أفكر على هذا النحو؟ أو يتوقع أني سوف أقتل أبي، ولذلك يحاول أن يحصل مني على اعترافٍ مبكّر؟ لا؟ أعتقد أن هذا صعب، تفحصّتُ الضابط متشكّكاً في شعوره نحوي، ثم كذبتُ بصعوبة

ـ لا، ما أعتقده هو أن أمي كانت مجنونة ومصابةً بالاكتئاب.. وانتحرت.. هذا كلّ شيء.. ثم إن التفكّر بهويّة القاتل هو وظيفتُك أنت وليس أنا، أليس كذلك؟

ابتسم كأنه يريد أن يضحك ثم قال في حماسةٍ غريبة

ـ لا بأس.... لا بأس... ما أريد أنا شخصياً أن أستفهم عنه يا صغير.. هو... أعني... لابد أنك تعرف... أعني مسألة العمى.. هذه مسألة غريبةٌ جداً.. لابد أنها رأت شيئاً أدى إلى مقتلها؟

ـ أهذا سؤال؟ لهجتك توحي أنه سؤال... ولكن أنا حقاً لا أفهم أين هو...

حمدتُ الله عندما سمعتُ صوتي، لا يزال متماسكاً فيه سخرية، ولكن أشعر بأنني سأفقد الوعي عمّا قريب، متى سينتهي هذا التحقيق المضني؟! كرّر الضابط وهو يرتجف من الحماس، حتى أن نظّارته تراخت عن أنفه

ـ ألا توافق أن ذلك غريب؟

ـ وإذاً...؟

ـ ماذا يمكن أن تكون قد رأت فتموت بسببه؟ أعني في رأيك الشخصي طبعاً؟

قلتُ متهكماً

ـ هل تريدني أن... أخمّن؟

ـ أليس لديكَ شكوك؟ أعني أن المسألة الغريبة..

ـ نعم.. غريبة.. لقد كرّرتَ ذلك ثلاث مرات.. صدقني لو كان لديّ ما أقوله لأجبتَك من المرة الأولى.

على أية حال، لقد فقدت أمي البصر دون سبب، واستردت البصر دون سبب، هذا في نظري أكثر غرابةً من مقتلها بعد أن شفيت من العمى، مهما كان ما رأت، هذا الضابط أو الطبيب لا يدرك ذلك، ولذلك هو غبي، ولذلك هو غير كفءٍ ليُحقق في مقتل أمي، قال مفكراً بصوتٍ مرتفع

ـ قُل لي إذن.... مذكورٌ هنا شيئاً عن...kunst heim كونستهايم .. ألا يعني ذلك بيت الفن؟

ـ بلى

ـ وهذا اسم المبنى الملحق بالقصر، صحيح؟

ـ بلى.

ـ هل هو من تسمية أمك؟

ـ نعم، كانت ترسم فيه.

ـ وهي عمياء؟!!

ـ نعم، وقبل أن تَعمى.

ـ لماذا لم يسمح لنا والدك بتفتيشه؟

ـ لماذا لا تسأله هو؟!

ـ تريدني أنا أن أسأل أباك عن شيءٍ لم يسمح لنا بتفتيشه؟! تريدني أن أموت صغيراً في العمر هكذا؟! حتى أنني لم أتزوج بخطيبتي بعد

يا للحِلف والسماجة، أعرضتُ بوجهي وأنا أجيبه متململاً

ـ لا أعرف لماذا لم يسمح لكم أبي بالتفتيش.. كما بالضبط لا أعرف كيف توافقون أنتم على هذه المهزلة

ضحك ونزع نظارته مضيّقاً عينيه السوداوين

ـ بل تعرف يا صغير.. تعرف إجابة السؤالين.. وتعرف كلّ شيء.. لكن عموماً.. لا بأس.. سأخبرك أنا ماذا اكتشفنا (دفع نحوي بورقة حديثة الطباعة واستطرد متسائلاً) ما هذا يا صغير؟

ـ تحليل دم؟

ـ بالضبط يا عزيزي.. وهذا الدم وجدناه هنا.. في حديقة القصر..

ـ أهو دم أمي؟!

تفحصّني بنظرةٍ ذات مغزى وقد تضاعفت سخريتُه واشتدّ ضحكه الداخلي

ـ لا يا صغير.... أنتَ تعرف جيداً أنه ليس دم أمك..

ـ أه، فعلاً؟!

هزّه الضحك حتى اهتزّ له رأسه في إعجاب

ـ لا .. ليس دم أمك..

ما يزال يبتسم كأنه يعني شيئاً

ـ ألا تريد أن تعرف دم مَن هو؟ أم أنك تعرف بالفعل؟

اتسعت ابتسامته وهو يبعد عينيه بصعوبةٍ عن ياقة قميصي المغلقة

ـ سأخبرك.. لا ترتعش هكذا يا حبيبي.. شهدتْ ضحى ابنة البستاني.. بأنها في ليلة الأحد الماضي.. قد رَأتْ جثةً أخرى.. ليست جثة أمك.. كانت الجثة ملقاةً أمام كونستهايم.. ثم خرج أبوك من المبنى وهو مخَضّبٌ بالدم.. وحمل تلك الجثة.. ثم لَفّها سجادة.. ثم وضع الجثة والسجادة في مؤخرة سيارته.. وانصرف.. ليدفن الجثة على الأرجح

ـ وإذاً؟

ـ يعني.. جثتيْن.. وربما أكثر.. في أقل من ثلاثة أيام.. كأن هناك شخصاً قد أصبح مسعوراً فجأة؟

ـ أين السؤال الموجَّه إلي؟

ـ تُعجبني يا صغير.. أنتَ حاذق اللسان وسريع الردّ.. ولكن أخبرني.. ألم تكن أنتَ نفسُك موجوداً في كونستهايم وقت الجريمة؟

ـ ...

ـ أرجوك لا تحاول الإنكار.. لقد شَهِدتْ البنتُ أنها رأتك تدخل المبنى قبل وقت الجريمة بقليل.. وبعد ذلك رُميت الجثة أمام المبنى.. وتخلص أبوكَ منها.. هل تفهم ما يعنيه هذا؟

ـ ...

نزع القلم من فمه وأضحكه شعوري الواضح بالغثيان من لعابه الملتصق بالقلم، قال وهو يتفحّص ردة فعلي

ـ كأن هذا المكان المعزول صُمّم خصيصاً ليفعل فيه المرء ما يشاء، ألا توافقني؟

ـ ...

ـ كان أبوك يعرف أنك مختلّ.. لكنه لا يريد فضيحة.. فيُيسّر لك ارتكاب ما تريد في مكانٍ معزول ثم يُنظّف من خلفك.. أما أمك العمياء فلم تكن تعرف؟ ولكنها تستردّ البصر فجأة وتراك.... شيءٌ كهذا سوف يدفعها حتماً إلى الانتحار.. أو أنك قتلتها خوفاً أن تتركك أو أن تبلغ عنك.. ألا توافقني؟

اعتدل في جلسته واستمرّ يهاجمني دون أن ينزع عينيه عنّي

ـ لا تخف هكذا.. كل هذه تكهّناتٌ طبعاً.. أما الحقائق المؤكدة.. هي أنكَ كنتَ قريباً من أمك عندما قتلت.. وها أنت ذا قريبٌ أيضاً من مكان جثةٍ أخرى تُقتل قبل أمك بيومٍ واحد**!** بصراحة.. لو لم تكن في الرابعة عشرة.. لربما تأكّدَ عصام مثلاً أو غيره بأنك قاتلٌ متسلسل... أما أنا... فحقيقةً.. أرى أن سنّك هذا تحديداً مؤشِّرٌضدك وليس في صالحك.. أنتَ في سنٍّ حرج... أقل ما يقال عنه أنه سنّ اضطراب هرموني ونفسي وجنسي.. فها أنا أصارحك أخيراً أن وضعك مشين... وأن الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذك هو الصدق.. لذلك سأسألك مجدداً.. في ليلة الأحد .. ما الذي حدث لتلك الجثة**؟!**